

الرياض والعوالم الثقافية د. يوسف حسن العارف



(1) بين الثلاثاء 5 أكتوبر 2021م = 28 صفر 1443هـ والجمعة 8 أكتوبر 2021م = 2/3/1443هـ، كنت في الرياض، حيث المعرض الدولي للكتاب في دورته للعام 2021م، فكانت هذه النصوص والتعليقات والتفاعلات الكتابية.

#

(2) وفي الطائرة التابعة لشركة "Flyadeal" ونحن نطلق على ارتفاع مهول - "ذكره قائد الطائرة ونسيته الذاكرة المثقوبة!!" - طلبت كوباً من القهوة أعدل به مزاجي، ولما جاء الكوب لفت نظري ما كتب عليه من عبارات أدبية رائعة وهي: "لا تجعل العالم يغيّر ابتسامتك... واجعل ابتسامتك تغيّر العالم!! فكتبت في ذاكرة الجوال ما يلي:

... نعم "لا تجعل العالم يغير ابتسامتك.. اجعل ابتسامتك تغير العالم" عبارة قرأتها على كوب قهوة في طيران آديل - قالوا إنها (أي القهوة) عربية!! وهي خليط لا عروبة فيها!!
أعجبتني العبارة ونحن في زمن التكشير وتقطيب الحواجب والنظرات السوداوية!! فماذا نجني إلا الأسى والأحزان. ابتسم واجعل كل من حولك يبتسم حتى تتغير من الداخل ويتغير من حولك!!
[الطائرة - صباح الثلاثاء 5 أكتوبر 2021م]

#

(3) ومع اقتراب الطائرة من المجال الجوي لمطار الملك خالد الدولي بالرياض كنت أكتب نصاً شعرياً جديداً لم تكتمل تشكيلته الشعرية بعد وهو بعنوان:

إلى التي...

(1) كم من العمر يبقى...

أيتها التي في خاطر الوقت/ تمضين

بلا تحية... ولا وداعٍ أخير!!

فرقت بيننا.. هذه الآمال...

فلا أنتِ تنسين/ ولا أنا

كُنَّا راحلٌ، وفق ما يكتب الدهر/ وعسى
أن نلتقي في المساء الأخير/ حيث لا وقت
نمضيه في الانتظار/ ولا ساعة موعِد نرقبها..
أيتها التي في خاطري/ والضمير!!

(2) حاولي...

أيتها المستفيقة في دمي...

أن تري في اكتمال السحاب/ مطر.

أن يكون الظلام العتيق/ في عينيك...

قمر.

أن يتحول الجذب خصباً..

والصحاري فيافي..

والعيون التي جفت..

نَهْر!!

حاولي...

ربما تنتشي الأهازيج،

ما بيننا..

ثم نسمع عزف الوتر!!

(3) أيتها التي في خاطر النبوءات...

مهلاً/ فالليالي مثقلاتٌ بما

نحن فيه، والنهارات تسكب

وهج الشموس اللاهثات/ والأغاني/

مشبعاتٌ بالمواويل الحزينات/ وأنا موجعٌ

بفراق الحبيبات...

وأنت أولهنّ/ يا غدي إذ يكون/

وأمسي الذي كان...

فكم من العمر يبقى...

إذا قلت لي:

هذا الكلام الأخير!!

(القصيدة لها اكتمال نرجؤه لآخر المقال)
[الطائرة - صباح الثلاثاء 5 أكتوبر 2021م]

###

(4) وتحط الطائرة... وينزل المسافرون.. هاهي الرياض تتجلى كطفلة للنور بعد هطول المطر!! ثم تعد هي الرياض التي أعرفها قبل كورونا وأيامها التي طوت عنا كل جمال، وهاهي الرياض خيل جموح تمد كاحليها في كل اتجاه لم تعد الرياض هي الشمسي والملز والعليا والصحافة، اليوم امتدت لتكون النرجس والورود والياسمين والمؤنسية والشهداء وواجهة الرياض.

آآه يا واجهة الرياض...
يالها من واجهة تكتنز المستقبل وتشى بانحدار الماضي. واجهة كل ما فيها شانزليزيه أو بيكاديلي أو التايمز سكوير. إنها واجهة الحداثة والشباب المؤدية إلى جودة الحياة وجماليات الرؤية 2030!!
وهاهي اليوم تحتضن المعرض الدولي للكتاب أكتوبر 2021م، الذي أشرفت على تنظيمه ولمدة عشرة أيام هيئة الأدب والنشر والترجمة بوزارة الثقافة، والذي جمع بين البعد الشرائي والبعد الثقيفي فلم يكن سوقاً لبيع الكتب فقط وإنما ملتقى ثقافي يجتمع فيه الناشرون والمؤلفون والقراء والباحثون الدارسون وطلاب

ثلاثة أيام قضيتها في متعة عقلية ومعرفية وثقافية بين أروقة ومنصات وفعاليات المعرض المتعددة والمتنوعة فكان الزاد وفيراً والمردود نافعاً والتثاقف واعياً ورشيداً.

###

(5) ومن أهم المكتسبات الثقافية في هذه الدورة من معرض الكتاب تلك الأمسية الماتعة التي سعدت بحضورها مساء الأربعاء 6 أكتوبر 2021م = 29/2/1433هـ في قاعة الندوات والمحاضرات حيث افتتح الدورة الثالثة لمنتدى الجوائز العربية الذي نظمه جائزة الملك فيصل واشتمل على فعاليتين ثقافيتين هامتين أولاهما: تكريم الأمير خالد الفيصل من قبل معهد العالم العربي في باريس نظير جهوده المباركة في دعم وتشجيع عدد من المشاريع الكبرى للمعهد مثل مشروع مائة كتاب وكتاب وغيرها التي أشاد بها سعادة رئيس المعهد في كلمته بهذه المناسبة، وتكريم عدد من الشخصيات رواد الجوائز العربية التي أسهمت في تأسيسها ووضع أنظمتها ولوائحها وهم:

أ.د/ أحمد الصبيب جائزة الملك فيصل

أ.د/ جابر عصفور جائزة نجيب محفوظ للرواية العربية

أ.د/ فهد السماري جائزة الملك سلمان لدراسات وبحوث تاريخ الجزيرة العربية

أ.د/ أسعد عبدالرحمن جائزة عبدالحميد شومان للباحثين العرب

أ. مجذوب عيدروس جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي

أ.د/ حسن نجمي جائزة الأركان العالمية للشعر

أ. ساسي حمام جائزة أبو القاسم الشابي

أ.د/ سعيد السعيد جائزة الملك عبدالله بن عبد العزيز آل سعود العالمية للترجمة

وكم كانت سعادتني وأنا أتعرف على هذه الأسماء الفاعلة في المشهد الثقافي العربي وكذلك الجوائز الثقافية التي يقومون على إدارتها وفعاليتها مما يجعلنا نتوق للمشاركة والترشح لها إن شاء الله.

وثاني تلك الفعاليات الثقافية هي الندوة المتعلقة بهذا الحفل الجائزي والمعنونة ب: ندوة المرأة والجوائز العربية والتي أدارها الصديق الأديب الدكتور صالح المحمود رئيس النادي الأدبي بالرياض وشارك فيها كل من الدكتورة شهلا العجيلي، والدكتورة فاطمة الصايغ، والأستاذة منصوره عزالدين والدكتور واسيني الأعرج.

وقد كان النقاش والحوار يدور حول أحقية المرأة المثقفة بهذه الجوائز ومدى حصولها عليها، وطاف المتحاورون في طروحاتهم حول الموضوع مؤكداً أن المرأة تستحق الجوائز ولكن لجان التحكيم لها موقف سلبي من ذلك!! ولما جاءتني فرصة للمداخلة والتعليق أشرت إلى أن المرأة المبدعة مثل أخيها الرجل وكلاهما يستحق الجوائز المهم أن تكون الممارسات الإبداعية والمنجزات التأليفية تصل إلى المسؤولين عن الجوائز وتجتاز الشروط والضوابط وتدخل في سياقات التحكيم وبالتالي فمن يصل للجائزة فهو الأحق بها سواء أكانوا رجالاً أم نساءً.

كما أكدت في مداخلتني - أن لا ننسى البون الشاسع والبعد الزمني في التكوين الثقافي لكل من الرجال أو السيدات فالرجل أقدم تعلماً وتمدرساً وثقافة وإنتاجاً وبذلك فهو الأكثر والأغزر والأجود إنتاجاً!! وعلى المرأة أن تسابق الزمن وتزيد في الوعي، وتبذل في الإنجاز لنصل إلى درجة الاستحقاق الجائزي.

وفي أمسية تالية كان المتحدث الكاتب والرحالة عبدالله بن صالح الجمعة في محاضرة عن أدب الرحلة والتي جذبتني عنوانه لاهتماماتي بالأدب الرحلي، ولكنني صدمت عندما سمعته يتحدث عن تجربته في كتابة المذكرات الرحلية ومواصفاتها وعناصرها التي عدد منها عشرة آليات وعناصر. فلما جاء وقت المداخلات والتعليق أشرت إلى صدمة العنوان وتحدثت عما أعرفه من أدب الرحلات ونماذج منها مثل رحلة ابن فضلان، ورحلات الأدباء إلى الحج والأماكن المقدسة، ورحلات الغربيين لاستكشاف الجزيرة العربية، ورحلات العبودي (التقاريرية) في زيارته للعالم الإسلامي. مؤكداً في كل ذلك التقارب الشديد بين هذا النوع من الأدب الرحلي وأدب السيرة الذاتية.

وفي فعالية ثالثة كان ضيفها الزميل الدكتور زيد الفضيل الذي تحدث عن التراث الحجازي مستعرضاً شيئاً من الفلكلور كالمجس، والإنشاد، والمزمار، وغيرها. وكانت محاضرة ماثعة وللأسف لم أكملها معه لظروف هامة كانت تربطني خارج المعرض.
وعلى أية حال فقد كان الحراك الثقافي في معرض الرياض الدولي للكتاب في قمة الجمال والتجديد والإبداع وإن أسفت على شيء فليس إلا على عدم الاستماع لمحاضرة سمو الأمير تركي الفيصل عن الملف الأفغاني والحصول على كتابه الذي دشنته في المعرض.

###

(6) ولعل من بركات هذا المعرض.. والأيام الثلاثة التي قضيتها في رحابه وبين أرواقته ودور النشر وقاعاته أن ألتقي برفاق الحرف والأدب والثقافة بعد غياب طويل فرضته علينا الأيام الكورونية!! فهذا الدكتور الناقد معجب العدوان، والدكتور عبدالعزيز السبيل، والدكتور المحمود، والدكتور حسن حجاب الحازمي، والدكتور حسن النعمي والإعلامي جبريل أبو دية والشاعر جاسم الصبيح والناقد محمد الحرز والدكتور حمزة هيلان العزيني والشاعر محمد عابس والشاعر سعد الغريبي والشاعر عبدالله الأسمرى والدكتور عبدالله الحيدري والدكتور صالح معيض والدكتورة هيا الأسمرى والدكتورة نجلاء مطري، والدكتورة عزيزة المانع والدكتورة طلوح السريحي والأستاذ عزيز الحارثي، والناقد حسن المكتبي والإعلامي عبدالعزيز العيد.. وغيرهم ممن سعدنا بهم واستفدنا من طروحاتهم وإهداءات بعضهم. فلهم الشكر والفضل ومزيد النجاح والتقدم.

###

(7) ولن تكتمل عوالم الرياض الثقافية إلا بزيارة الصديق/ السفير فهد بن عبدالله الصفيان - سفير المملكة في عديد من الدول وآخرها مشرفاً على المركز الإسلامي في سويسرا حيث استضافني في داره العامرة يوم الجمعة 2/3/1443هـ وهياً لنا جولة سياحية في معالم الدرعية وخاصة (حي الطريف)، ذلك الحي التراثي الذي يسير إلى تاريخ الدرعية وآل سعود منذ بداياتهم الأولى وهو حي تم ترميمه وتجهيزه ليكون متحفاً ناطقاً بتاريخ هذه المنطقة وهذه الأسرة المباركة/ آل سعود التي حكمت الجزيرة العربية في ثلاث فترات متتالية. لقد اهتمت الجهات السياحية والآثارية بهذا الحي فأوجدوا منه آية ومعلماً ثقافياً وحضارياً وآثارياً حتى اقتنعت اليونسكو بإدراجه ضمن قائمة التراث العالمي باليونسكو منذ العام 2010م/1430هـ.

ويحتضن هذا المشروع الآثاري العملاق إعادة لترميم القصور التي دمرتها مدفعية محمد علي باشا أثناء غزوه للدرعية باسم الدولة العثمانية عام 1818م/1233هـ.

وقد هُيئ لنا أن نصلي المغرب في الجامع الكبير بالدرعية المعروف بـ مسجد الشيخ محمد بن عبدالوهاب ثم ننطلق إلى حي الطريف حيث استقبلنا بعض المسؤولين في إدارة الحي والتعرف على دليلتنا السياحية الأستاذة سارة العتيبي التي أخذتنا في جولة ما بين صلاتي المغرب والعشاء وفي أجواء فانتازية من الأضواء والظلال والممرات الحجرية التي تبرز القيمة التراثية للحي. فوقفنا عند قصر إبراهيم بن سعود حيث يوجد مركز لتوثيق تاريخ الدرعية، وجامع الإمام محمد بن سعود الذي أعيد ترميمه وتهيئته لإقامة الصلاة على نفس المساحة والأبعاد التأسيسية، وقصر فهد بن سعود وفيه إدارة الحي والمركز، ومتحف التجارة والمال الذي خصص له أحد مباني بيوت المال. كما وقفنا عند متحف الخيول العربية ويقع ضمن المباني المجاورة لقصر الإمام عبدالله بن سعود، وكذلك المتحف الحربي الذي رأينا فيه السيف الأجرد ومتحف الحياة الاجتماعية في قصر عمر بن سعود.

وفي كل ذلك كنا نسير ونستذكر ذلك الماضي البهيج الذي كانت تعيشه هذه الأماكن في ظل حكومة سعودية أولى شأته الظروف والأقدار أن تمتد إلى مرحلتها الثالثة التي تتفياً في ظلها في عهد الحاكم السادس للدولة السعودية الثالثة بعد مؤسسها رحمه الله، سلمان بن عبدالعزيز وولي عهده الأمير محمد بن سلمان حفظهما الله.

كانت دليلتنا المرشدة السياحية سارة العتيبي على وعي كبير بما تحدثنا عنه وهي خريجة قسم الآثار من جامعة الملك سعود وحصلت على العديد من الدورات السياحية لتصبح اليوم في عداد الآثريين المتمكنين من الشرح والتبسيط للآثار القائم الذي يزوره الكثير ومن كل الفئات والجنسيات فإذا وجدوا مثل هذه العالمة الواثقة من نفسها والواعية بعلمها والمتألقة بعملها التي تستطيع إيصال المعلومة متكاملة وشاملة ومقنعة!!

فشكراً للأخت الدليلة أو (The tourguide) التي كانت وسيلة إيضاحية ناطقة متحركة (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) عن الزمان والمكان والتي ختمت جولتنا بتلك الوقفة المرئية عن تاريخ هذه البيوت والقصور الأثرية. وقد انتقلنا إلى الجهة المقابلة حيث قصر سلوى لنستمع بمشاهدة فيلم قصير يحكي تاريخ هذه الآثار ويعرض لنا مشاهد سينمائية شأستها هي هذه المباني الأثرية التي جرى ترميمها وتجهيزها لمثل هذه العروض المرئية والمعروفة بالصوت والضوء.

كانت أمسية رائعة بمرافقة المرشدة السياحية الأخت سارة العتيبي التي أعادتنا إلى منابع التاريخية الأولى للدولة السعودية وفضاءاتها المكانية والزمانية والتجديدية ليصبح (حي الطريف) واجهة الرياض السياحية، ومنطلق الماضي والحاضر إلى المستقبل.

وكانت أكثر ثراءً ومعرفة بوجود الزميل/ الصديق/ الدبلوماسي: فهد الصفيان الذي كانت لتعليقاته وتسأولاته وإضافاته الكثير من المتعة والفائدة لاسيما وأنه على وعي كامل بالمكونات الحضارية والتاريخية والجغرافية لهذه المنطقة، وقد وعى وحوى الكثير من الشواهد الدالة والمحفزة منذ بدايات تكونه العملي والوظيفي، وكان لوالده وبنو عمومته الكثير من المزارع في حي الجبيري، والآن أصبحت ضمن الذكريات "الماتعات" والذكريات صدى السنين الحاكي " كما يقول أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته (رحله).

فشكراً لأخي فهد ولأبنائه الكرام عبدالله وعبدالعزيز اللذين خططا لهذه الجولة السياحية الماتعة والمفيدة!!

###

(8) وختاماً...

ومع اقتراب موعد رحلة العودة لطيران آديل للعودة بنا إلى جدة يوم الجمعة 8 أكتوبر 2021م الساعة 23.35 أي الحادية عشرة والنصف مساءً. كان مضيفنا - هذا اليوم - سعادة السفير السابق/ فهد الصفيان، يلح علينا لتناول وجبة العشاء فالوقت للعودة قريب من منتصف الليل والمسافة ما بين المطار والبيت لا يتجاوز الـ 15 دقيقة - 20 دقيقة، ولكني تمنعت لشعوري بـ (فوييا السفر) الذي أدى إلى حربي الشديد على التواجد في المطار قبل السفر بوقت غير قليل.

وفي حالتنا هذه وصلت المطار في الوقت المناسب وسلمت السيارة المستأجرة ودخلت إلى صالة الانتظار للمغادرة فكانت المفاجأة: رسالة من خطوط آديل يعتذرون عن تأخر المغادرة حتى الساعة الواحدة، ثم تلتها رسالة ثانية بالتأخير إلى الساعة الثانية، وجاءت الرسالة الثالثة بالتأخر حتى الساعة الثالثة وثلاث وخمسون دقيقة وفي كل ذلك لم نشاهد أي مسؤول في طيران آديل للمباحثة معه، أو تقديم واجب الضيافة للمتأخرين أو الاعتذار وبيان أسباب التأخر!! وتتساءل كمواطنين أين حقوقنا؟ ومن يعوضنا عن هذه الساعات التأخيرية علماً أن ثلاث رحلات إلى جدة قد غادرت من مطار الرياض فيما بين الساعة 11 وحتى الساعة الثالثة ونحن أصحاب الحق نحظى بالتأخير والتجاهل!!

لم يكن أمامي - والأمر كذلك - حتى بادرت إلى مجموعة من الكتب التي حصلت عليها إهداءً أو شراءً من معرض الكتاب أتصفحها على عجل في فترة الانتظار الطويل وتجسيد تلك المعاناة شعراً في بعض الأوراق، وهو ما ستختتم به هذه المقالة!!

###

(9) (4) حَرَّ في النَّفس...

أن تعود إلينا المواويل القديمة/

وقد جاوزها الوقت/ وما عادت إلينا

تنتمي...

نحن في عصر التَّقانة/ عصر الفضاء السببراني/

وعصر التهاويل التي ما تنبأنا بها...

فيا حادي الوقت/ عُدْ بِنَا...
للزَّمان الأثير!!
[الرياض 1/3/1443هـ]

(5) بين (زَاءٍ) و(جِيمٍ)...
وفي منطقة لا هنا/
ولا هناك!!

نسرق الوقت/ بالحروف النديات
نوغل في البحث عن أفقٍ/ للكلام الجميل/
ولكن مشَّنا الضُّرُّ...
وغامت سماواتنا/ (شاهين)/ يعصف
بالقلب/ كما في (السويق)(*) و(مسقط)!!

وبالأمس واليوم/ في (جازان)...
يا لهذا الزمان الخطير!!
[مطار الرياض - الجمعة مساء 5/4/1443هـ]
(6) وهانحن في منطقة بين.. وبين...
(نحترق) حرَّة النَّفْرة/
نرقب صوت النَّداء/
نُوشِوش بالهاتف أحبابنا/
نُصَلِّي/ ونشرب شاي الخدير/
نقرأ لـ (الصَّقْعَبِي)..
و(الشنفرى)..
و(لبابة أبو صالح)..
ومازلت في انتظار النداء الأخير!!
وقالوا: تأخر موعدنا ساعة...
ساعتين...
أضافوا لها الثالثة!!
والآن قالوا:
"سلام هي حتى مطلع الفجر!!"
وهانحن في انتظار الفَرْج!!
مشَّنا الضُّرُّ/
فهات القصائد..
يا سمير!!!(*)

*[السويق، مسقط: مدينتان في دولة عمان الشقيقة تأثرتا بإعصار (شاهين)]
* [سمير: شاب تعرفت عليه في صالة المغادرة، رأني أقرأ في كتاب، فطلب مني كتابا ليقرأه خلال ساعات الانتظار]
[مطار الرياض - السبت 6/4/1443هـ]

ورغم هذا الأسى والمعاناة في رحلة العودة حيث لم نصل جدة إلا مع تباشير فجر السبت 9 أكتوبر 2021 م - 3/3/1443 هـ إلا أن العوالم الثقافية التي عشناها في الرياض ولقاءات الأحبَّة والأصدقاء والزملاء وحضور الفعاليات الثقافية الماتعة أنستنا كل تلك المرارات، وجعلتنا نتجاوز السلبيات إلى الإيجابيات، ونخلق من شراب الضُّرِّ... طَوْأ يستسيغه اللسان والشفتان. ولا..... إلا: لا حول ولا قوة إلا بالله والحمد لله رب العالمين.
جدة 1443-17/3/20هـ